مصر فى الصباح

(بقيـــة المنشور على صفحة ٦٠٣)

واذن فهو مازال عاجزا كصاحبيه ، واذن فما زلنا ننتظر من يصف الحالة الحاضرة ويصور مصر فى الصباح .

أما أنا فلم اشك فى أن مصر فى الصباح موضوع خطير لابد من الكتابة فيه ، ولكن أى مصر ؟ اهى مصرى انا أم مصر الزيات ام مصر صديقنا محمود ؟ فقد كانت لنا امصار ثلاث مختلفة فيما بينها اختلافا غير قليل . كانت مصرى انا تبتدىء فى ربع من ربوع حوش عطى ، وتنتهى الى الازهر الشريف مارة بمشهد الحسين والحلوجى بعد أن يقطع السالك الى هذا المشهد الكريم احدى طريقين : حارة الوطاويط ، أو شارع خان جعفر .

وأما مصر محمود فكانت تبتدىء فى الظاهر فى حارة ضيقة قريبة من بيت الشيخ الانبابى رحمه الله ، وتنتهى الى الازهر الشريف مارة بما شئت من الطرق التى تستقيم ان اردت لها أن تستقيم ، وتلتوى إن احببت لها الالتواء .

وأما مصر الزيات فكانت تبتدىء فى حارة ضيقة على قلعة الكبش ، ثم تتحدر الى شارع لا اذكر اسمه ، ولكنه ينتهى الى مسجد السيدة زينب . ثم تصل بعد ذلك الى الازهر من طرق تستطيع أن تستقيم وتستطيع أن تلتوى ، تستطيع ان تقصر ، وتستطيع أن تطول . فاى هذه الامصار الثلاث أصف ؟ وعن أى هذه الامصار الثلاث أتحدث ؟ فاما مصرى أنا فقد كانت حلوة لذيذة فى الصباح ، ولكنها لم تكن تعجب الزيات ، ولم تكن تلذ لمحمود . كان يوقظنى فيها مع الفجر صوتان : احدهما صوت المؤذن الذى كان يدعو الى الصلاة فى جامع يبرس ، والآخر صوت جارنا الشيخ الذى كان شافعيا موسوسا ، ينفق نصف ساعة فى اقامة الصلاة : ال . . ال . . الله . . الله . . ان . . الله أكبر ، ثم يبدو له فيخرج من الصلاة أو يستأنف الدخول فيها : ال . . ال . . الله . . الله ال . . الله أكبر . ثم يمضى فى صلاته حتى يتم الفاتحة أو يكاد ، واذا هو يخرج منها ويستأنف الدخول فيها . وما يزال يقبل ويدبر ، ثم يبدأ ويعيد ، ثم يقيم الصلاة ويستأنف اقامتها ، حتى اذا أشفق من فوات الوقت عزم أمره ، وهجم على صلاته فاقتحمها اقتحاما ثم مضى الى درسه فى الازهر الشريف .

أستغفر الله فقد نسيت صوتا ثالثا كان يوقظنى فى السحر لا فى الفجر ، صوت ذلك الشيخ الظريف الذى لم يكن عالما ولا شيئا يشبه العالم ، وانما كان تاجرا أعرض عن التجارة ، وانقطع للفكاهة والضحك فى النهار ، وللصلاة والنسك فى الليل . فاذا أقبل السحر خرج من غرفته يهمهم ، ويحمحم ويضرب الارض بعكاز غليظ ، ويبعث فى الجو صوتا هائلا رائعا يحمل جملا متقطعة من الورد الذى كان يبدأه فى غرفته ليتمه ، ثم يستأنفه فى مسجد الحسين ، حتى اذا صلى الصبح عاد هادئا مطمئنا قد خفف وقع عكازه على الأرض ، وخفف ارتفاع صوته فى الجو ، لان الذين كانوا نياما فى السحر قد أصبحوا أيقاظا حين ارتفعت الشمس . أستغفر الله ، وقد أنسيت أصواتا أخرى ، كانت تبعث بعد أن ينقطع صوت المؤذن : فهذا سائق عربة قد أقبل يحل خيله أو يحل حماره الذى عقله تحت النافذة . وهذه «حمدة» التى كانت تبيع ألوان الفاكهة على اختلافها باختلاف الفصول تفرضها علينا نحن المجاورين فرضا . فاما اشترينا وإما تعرضنا لغضبها ، وويل لمن كان يتعرض لغضب «حمدة» ، فقد كان عنيفا مخيفا يضطرب له الربع ويزلزل له حوش عطى زلزالا . !!

على هذه الاصوات كنت أستقبل مصرا ، وكانت تستقبلنى مصر فى الصباح ، فاذا هبطت من الربع ومضيت الى مدخل حوش عطى ، فهذا صاحب القهوة قد أفاق ، وهو يحك عينيه من بقية النعاس ويهيىء «الجوزة» للحاج فيروز ، هذا الذى كنا نشترى من عنده أكثر ما نبتغى من ألوان الطعام . فاذا مضيت قليلا فهذه الحوانيت تستيقظ شيئا فشيئا ، وهؤلاء باعة الفول والبليلة والطعمية قد ازدحم من حولهم الناس ، حتى اذا تقدمت بعض الشىء عطفت ذات الشمال ان كنت مستعجلا ، فمضيت من حارة الوطاويط ، حيث أقذر مكان خلقه الله ، وحيث أعظم الناس حظا من البؤس رجالا ونساءا ، قد جلسوا فى أقبح شكل وأبشعه يسألون الناس . وان كنت متأنيا عطفت ذات اليمين ، فمضيت من خان جعفر ، وانتهيت على كل حال الى شارع الحسين ، ثم المفارق الاربعة ثم انغمست فى شارع الحلوجى ، ثم دفعت الى باب المزينين .

هذه مصرى التى كان الزيات يريدنى على ان أصورها له فى الصباح ، وأقسم لو فعلت لنفر منى وهزأ بى وازور عنى ازورارا . ولكنى واثق الآن بأنى حين أتحدث اليه عنها اثير فى نفسه عواطف يحبها واحلاما يرضاها ، وأبلغ من استحسانه ما أقصر عنه من غير شك